خفايا التاجي



قصة قصيرة

صالح محمد الهلابي

الرياض

24يوليو 2020م

خفايا التاجي

صالح محمد الهلابي

إهداء

إلى كل روح أنهكها المرض، وكل قلب خاض معركة الحياة في أروقة المستشفيات...
إلى كل من مرّ بتجربة مريرة مع جائحة كورونا،
وتركَ جزءًا منه بين أروقة العزل وأجهزة التنفس...
إلى من ذاق مرارة الوجع، وعاش لحظات الوحدة،
والقلق، والخوف من الغد...

لكم أنتم، أصحاب القصص الصامتة والبطولات اليومية التي لم تُكتب،
أهدي هذه القصة، بلسان من ذاق طَعم الألم،
وعرف طَهر النجاة، وخرج من العاصفة أكثر إنسانية...

علّها تلامس بعضًا من مشاعركم، وتمنح قلوبكم عزاءً وجبرًا،
لأن في كل حرف هنا، نبضًا يشبهكم...

منذ أن خرجت من العزلة، وأنا أبحث عن الوجوه التي غابت، عن الأصوات التي كانت تؤنس وحدتي عبر الشاشات والرسائل النصية. الكل ردّ على محاولاتي... إلا ناصر.

رسائلي إليه ظلت بلا إجابة، كأنها علقت في فضاءٍ لا يصل، وكل سبل التواصل التي اعتدت أن تمدّ بها يدي نحوه، صارت طرقًا مسدودة. لم أكن أعدّه من أصدقائي المقربين، ولهذا في البداية، لم يكن غيابه مثيرًا للقلق. كانت علاقتنا تتشكل على أطراف الهواية، في عالم التصوير الفوتوغرافي، حيث جمعتنا أكثر من رحلة، داخل البلاد وخارجها، بين عدسات ومشاهد، ومشاعر تمرّ بخفة بين اللقطات.

كنا نلتقي في رفقة تهتم بالصورة أكثر من الكلمة، ونتبادل الخبرة أكثر مما نتبادل الأسرار، لكن ناصر... كان مختلفًا. كان شفافًا بطريقة نادرة، يحكي التفاصيل دون تكلّف، وله حضور لا يمكن تجاهله، تشعر بأنه موجود حتى وإن لم يتكلم.

حاولت أن أتناساه. قلت لنفسي: "لا تعقد الأمر، ربما أنه مشغول، أو قرر أن يبتعد عن العالم قليلًا." لكن... لماذا، إذًا، كان وجهه يزورني كل ليلة قبل النوم؟ لماذا الصور السوداء لا تحضر إلا حين نطفئ الأضواء؟ لماذا ناصر، تحديدًا، هو من يظهر من بين كل الأسماء؟

أتقلب على فراشي، وأستعرض آخر الصور التي جمعتنا في أملج، الصيف الماضي، حين كنا نصوّر تحت الماء. ضحكاته تسبح أمامي، وصوته المليء بالحماسة يتردد في أذني. حاولت النوم، لكن التفكير أثقلني، والإرهاق لم يسعفني سوى باستسلام جسدي، وقد عزمت في داخلي أن أبدأ رحلة البحث عنه صباح الغد، مهما كلفني الأمر.

جاء الصباح، ومعه تراجعت عزيمتي قليلًا. شمس الرياض تصعد بثقل، ووعد الليل كاد يذبل، لكنني تماسكت. جمعت بقايا قوتي وبحثت عن أي وسيلة تصلني بناصر. هاتفه لا يجيب، وبريده لا يُقرأ،

ورسائلي تظل دون علامتي الصح المعتادتين. اتصلت بزميل له في العمل، فجاءني الرد الصادم: لم يره منذ أكثر من ثلاثة أشهر. برر غيابه بأن العمل أصبح يُدار بالتناوب والعمل عن بعد، منذ بداية الأزمة.

كانت تلك المعلومة مثل بوابة جديدة تُفتح أمامي، لكنها لم تقُدني إلى شيء. لا أعرف عنوان أسرته، ولا أخوته، ولا صديقًا مقربًا له. لم يتبقّ أمامي سوى أن أذهب إلى منزله... لكن، هل من اللباقة أن أطرق باب إنسان في زمن التباعد والخوف؟ ترددت كثيرًا.

في مساء اليوم ذاته، خرجت للمشي في ممر الزهور، الممر الذي اعتدت أن أهرب إليه حين تشتد بي الأسئلة. المارة حولي كأنهم أطياف، وجوههم مغطاة بالكمامات، يتحاشون النظرات، وكلما اقتربت من أحدهم، تسارع خطاه ليبتعد. حتى المشي أصبح تمرينًا على المسافة.

الحر لا يُطاق، ولا نسمة هواء تُعزّي، ومع ذلك كان المكان مزدحمًا. لم أتحمّل طاقة المكان، فانسحبت عائدًا إلى منزلي، مرهقًا دون راحة.

اغتسلت، ووقفت أمام المرآة أبحث عن ملامحي المتعبة، ثم توجهت نحو سريري. لكن السرير لم يكن مريحًا، كان محكمةً تُحاكمني كل ليلة.

من هو ناصر؟ ولماذا يشغلني لهذا الحد؟ جربت أقراص الميلاتونين، يقولون إنها تُساعد على النوم، لكن لا دواء يمنع الذهن من التشتت إذا كانت الروح مشغولة.

في اليوم التالي، وقبل غروب الشمس، توجهت إلى منزل ناصر. كان كل شيء يوحي بالغياب. الغبار يغطي الباب، وسيارته التي أعرفها جيدًا تقف في مكانها وقد تراكم عليها التراب حتى صار طبقة. المشهد كله يصرخ: لا أحد هنا.

رغم ذلك، ضغطت على جرس الباب الإلكتروني، وظهرت صورتي على الكاميرا الصغيرة، لكن لا أحد أجاب. ظللت واقفًا للحظات، بين اليأس والرجاء، ثم قررت أن أرحل. بدا أن كل خيوط الأمل قد تقطعت.

عدت إلى منزلي، أحاول إقناع نفسي أنني فعلت ما يكفي، لكن... كان هناك شيء داخلي لا يهدأ. شعور غريب، لا أعرف له اسمًا، يأمرني بالعودة، بالذهاب مرة أخرى... فقط كي أُغلق هذا الملف الذي أنهكني، وأطوي صفحة علقت بها روحي منذ أيام.

حينما دنت قدماي من منزله وقد لفّ الظلام المكان كستار مسدل، كان الليل صامتًا إلا من صدى خطواتي المترددة. مرّ طفل صغير يركض خلف كرته، فتوقفت وسألته وأنا أشير إلى البيت الغارق في عزلته:

–هل يسكن أحد هنا؟

نظر إليّ بخوف وتردد، ثم أجاب وهو يبتعد:

–انظر إلى الدور العلوي... الأنوار مضاءة، ربما يكون أحدهم في الداخل.

كانت جملته البسيطة كنافذة أمل انفتحت في قلبي. نظرت نحو النوافذ البعيدة، ووجدت بالفعل غرفتين تضيئان العتمة، فاستجمعت شجاعتي وعدت إلى الجرس، وضغطت عليه مرارًا، بصبرٍ وقلقٍ وتوجّس.

ثم، كالموسيقى التي تنقذك من صمتٍ خانق، جاءني صوته من الداخل، واضحًا عميقًا:

–ماذا تريد مني يا علي؟

امتلأ قلبي بالفرح، كأن صوتَه امتداد لحياةٍ كنت أخشى أن أكون قد فقدتها. أجبته بحماسٍ يخنقه الشوق:

–اشتقت إليك، جئت لأطمئن عليك.

صمت برهة ثم قال بصوتٍ يحمل ما يشبه العتاب:

–يا صديقي، قلبك طيب... لكننا نعيش في زمن لا يرحم، زمن "نفسي نفسي."

–لا أفهم تمامًا ما تعنيه، لكننا كنا شريكين في هواية جميلة، وعشنا لحظات لا تُنسى معًا. أنا لم أنسَ.

–وماذا تريد مني الآن يا علي؟

–فقط، أن نلتقي. نتحادث. نكسر هذا الجدار الصامت بيننا.

–هل فقدت صوابك؟ نلتقي في زمن الكورونا؟!

–لقد أصبتُ بها في بدايتها وتعافيت بحمد الله. أعيش حياتي الآن بشكل طبيعي. لكن إن كنت خائفًا، فسأنصرف فورًا.

ساد صمت طويل. بدا أن كلماتي كسرت شيئًا ما في داخله. ثم جاءني صوته، أكثر ليونةً هذه المرة:

–وأنا كذلك يا علي... أصبت في الأيام الأولى. كانت إصابة خفيفة، لكن ما بعدها كان أقسى من المرض نفسه.

–نعم... ما نخشاه وقع، وها نحن قد نجونا. ولا أحد يفهم المعاناة مثل من تذوق مرارتها.

–بل فقدت حتى الإحساس بالمرارة... ضاعت مني حاستا الشم والتذوق.

ضحكت، وقلت ممازحًا:

–منظري الآن أمام بيتك يوحي بأني متسول... والحقيقة، أنا متسول مشاعر. لم أطرق بابك إلا لأن قلبي اشتاق إليك.

صمت برهة، ثم قلت:

–ما رأيك أن نلتقي غدًا، في "مقهى المساء"، كما كنا نفعل قديمًا؟

–لم أغادر المنزل منذ ثلاثة أشهر. وربما سيارتي لم تعد تعمل. ثم إن ذلك المقهى قد يضم أشخاصًا لا أرغب برؤيتهم الآن.

–لا بأس، سآتي لأخذك بعد العشاء، ونذهب إلى مقهى آخر. المهم أن نلتقي.

–اتفقنا... سأنتظرك.

غادرتُ وأنا أشعر بانتصار صغير، لكنه ثمين. لقد حطّمت الجدار الذي بنته العزلة بيني وبينه، وأعدت فتح بابٍ صديءٍ نحو الماضي الجميل.

في الليلة التالية، وصلنا إلى مقهى "يا مسهرني" في شارع التحلية. كان المكان يغرق في صوت أم كلثوم وهي تردد:

"كلموني تاني عنك... فكروني

صحّوا نار الشوق في قلبي، وف عيوني"...

انسجم ناصر مع الأغنية كأنها تخاطب وجعه. تركته في عالمه، وذهبت لأطلب الطلبات من النادل كيلا يعكر حديثنا.

وحين عاد إلى وعيه، سألته:

–لماذا تبدو وكأنك خسرت معركتك مع كورونا؟

خلع نظارته وعدّل جلسته، ثم قال بهدوءٍ مُثقَل:

–يا علي... لكل واحد منا قصة مع هذا الوباء، قد نحكيها يومًا لأحفادنا. المرض واحد، لكن الوجع يختلف باختلاف الأرواح.

–وضّح أكثر.

–أنت من أسرة مثقفة، والدك أستاذ جامعي، والدتك معلمة، تعيش في الرياض. أما أنا، فقد جئت من بيئة قروية بسيطة، يغلب عليها الخوف والشك، تُضخّم السوء وتُسكت الخير.

–احكِ لي... ماذا حدث لك أثناء المرض؟

تنهد طويلًا، ثم قال:

–في بداية الأزمة، وعندما أُغلِقت المدارس، أخذت زوجتي وأولادي وسافرت إلى قريتنا، بعيدًا عن زحام الرياض. لكني عدت بعدها وحدي، قبل فرض الحظر الكامل. بدأت الحرارة ترتفع، فظننتها إنفلونزا. لكن الأعراض اشتدت... حمى، إرهاق، ألم لا يوصف.

–وماذا فعلت؟

–تواصلت مع وزارة الصحة، أجروا لي مسحة، وجاءت النتيجة إيجابية. طُلب مني العزل أسبوعين. الجوال ظل مغلقًا، ولم أُخبر أحدًا سوى زوجتي

ومديري في العمل. تحسّنت بعد أيام، لكنني فقدت صوتي، وتوقفت حاستا الشم والتذوق.

–وما رد فعل الناس؟

–انهالت الرسائل. بعضهم دعاني للاستغفار وكأنني ميت، وآخرون أرسلوا وصفات شعبية أغرب من الخيال. ثم، بعد أسبوعين، جاءت نتيجة الفحص سلبية. أعلنت تعافي، ففرح البعض، وصمت الكثير.

–هل عدت للعمل؟

–رئيسي موسوس. رفض عودتي. أعمل من البيت منذ ذلك الحين. ولم يُخصم من راتبي لأنه يخاف من عطسة واحدة قد تغيّر مصيره.

ضحكت من مزحته، ثم قال بنبرة حزينة:

–أشعر أنني منبوذ.

–لماذا تقول هذا؟

–والد زوجتي رفض عودة أبنائي بحجة الخوف. وعندما اعترضت، ذكّرني بأنه أعفاني من ثلاثة أقساط من المهر.

–مهر مقسّط؟!

–نعم، عاداتنا هكذا. زوجتي ابنة عمي. اتفقت العائلة على مهر كبير يُسدد خلال خمس سنوات. قلت لك... بيئتنا مختلفة.

–ومن معك في البيت الآن؟

–لا أحد... فقط أنا وكلب صغير تبنيته بعد تعافيي. هرب مني البشر، فوجدت في الكلب وفاءً لا أجده عند الناس. يمشي بجانبي، ويلفت الأنظار، وتحدثني الناس عنه... عبره، بدأ البعض يكسرون صمتي.

نظرت إليه طويلًا. كان ناصر أقرب إليّ من أي وقت مضى. شعرت أنني لم أنقذه من وحدته فحسب، بل أنقذت شيئًا من صداقتنا، من إنسانيتنا، من أرواحنا التي خنقتها الجائحة.

المؤلف: صالح محمد صالح الهلابي

- **الميلاد :** وُلدت في ربيع عام 1966م في بيت أسرتي الطيني بعيون الجواء، منطقة القصيم.
- **الإقامة :** أعيش في مدينة الرياض منذ عام 1968م.
- **التعليم :** تخرجت من جامعة الملك سعود عام 1990م.
- **الخبرة العملية :** لدي خبرة في الوظيفة العامة تمتد لأربعين عاماً، شغلت خلالها منصب مدير لمدة خمس وعشرين سنة.
- **العمل الحالي :** أشغل حالياً منصب المدير التنفيذي لجمعية حماية الطيور.
- **النشاطات :** ناشط في المجال البيئي، متخصص في حماية الطيور.
- **الإصدارات :** صدر لي عدد من الكتب في مجالات متنوعة.
- **التواصل :**

  - **الجوال**(+966 555 488 890)
  - **البريد الإلكتروني**: helabis@gmail.com
  - **www.**alhelabi.com